بين البحتري وشوقي

الأستاذ أحمد أحمد بدوي

انتهت المؤامرة التي دبرها المنتصر مع الأتراك ، بقتل الخليفة المتوكل سنة ثمان وأربعين ومائتين من الهجرة ، وكان البحتري الشاعر في المجلس الذي تم فيه ذلك الاغتيال ، فثارت عواطفه ، فأنشأ قصيدة يرثي بها مولاه القتيل ، ويقرع فيها ابنه ولي العهد رأس هاته المؤامرة ، ويقول :

أكان ولي العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملّى الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ولا وأل المشـــكوك فيه ولا نجا

من السيف ناضي السيف غدرا وشاهره

فكانت تلك القصيدة من عوامل الجفوة ، بينه وبين الخليفة الجديد . والظاهر أن الشاعر قد اضطهد في بدء ذلك العهد ، فنبت به بغداد وسر من رأى ، وأزمع الرحيل حتى يعود إلى الجو نقاؤه وصفاؤه ، وحتى ترجع حياته إلى سابق عهده بها ، لينة سهلة وادعة ؛ فاختار أن يرحل إلى المدائن عاصمة دولة الفرس القديمة ، راجياً أن يجد في تلك الرحلة العظة والتسلية . وقد أثمرت رحلته تلك قصيدة رائعة قل نظائرها في الأدب العربي كله ، وكان لها صدى في نفس شاعرنا المغفور له شوقي ، فقد نفى في أيام الحرب العظمى الماضية إلى الأندلس ، وظل بها حتى وضعت الحرب أوزارها ، فرأى واجباً عليه قبل العودة إلى وطنه ، أن يزور آثار العرب التي خلفوها بتلك الديار ، وكان البحتري رفيقه في الترحال ، وسينيته التي خلد بها إيوان كسرى تملك من شوق نفسه ، قال « فكنت كلما وقفت بحجر ، أو أطفت بأثر ، تمثلت بأبياتها ، واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها ، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحتري إيوان كسرى ... وشفتني القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة » .

بدأ الشاعران قصيدتيهما محنقين مما رمتهما الأيام به ؛ أما البحتري فسر حنقه خوفه على رزقه أن يطفف ، وخشيته على عيشه أن ينقص :

بلغ من صبابة العيش عندي ... طفقتها الأيام تطفيف بخس

وبعيد ما بين وارد رفـــه ... عـــال شربه ووارد خمس

وكأن الزمان أصبح محـــولا هواه مع الأخس الأخس

وهنا يثور فيه الحنين إلى وطنه الشام ، فيرى أنه لم يكن حكيما ، يوم باع هذا الوطن ، واشترى به العراق ، ولكنه لا يسرف في هذه الثورة ، ولا يطيل ، بل يكتفي بقوله :

واشتراني العراق خطة غبن ... بعد بيعي الشآم بيعة وكس

أما شوقي فيبدأ قصيدته بالحنين إلى الشباب وملاعب الشباب ، والحنق على هؤلاء الذين حرموه الإقامة في وطنه ، وأبعدوه عنه ، ويرق شوقي في حديثه عن قلبه الذي لم يسل بلاده ، فهو متقلب مستطار ، إذا استمع إلى البواخر مقلعة أو عائدة ، فيقول :

وسلا مصر ، هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى

كلمـــا مرت الليالي عليه ... رق ، والعهد في الليالي تقسى

مستطار إذا البواخر رنت ... أول الليل أو عوت بعد جرس

راهب في الضلوع للسفن قطن ... كلما رن شاعهن بنقس

فهذا القلب يكاد يطير من بين أضالعه كلما أصغى إلى باخرة تصيح في هدأة الليل ، وهو كالراهب المتبتل يدق ناقوسه ، كلما ثارت سفينة ، تزمع الرحيل ؛ وهنا يأسى شوقي لحرمانه من وطن ينعم به حتى غير أهله وذويه :

أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس

وإذا كانت ثورة البحتري على بعده عن وطنه قد وقفت عند حد إعلانها ، فلم يحدثنا عن هذا الوطن قليلا ولا كثيرا ، فإن الذكريات تنهال على شوقي ، وصورة بلاده تتمثل أمامه ، فيطفىء شوقه بالحديث عن طبيعتها حيناً ، وعن آثارها حيناً آخر ، وإنه ليسمو إلى أبعد الغايات في تصوير هذا الشوق إذ يقول :

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهفا بالفـــؤاد في سلسبيل ... ظمأ للســـواد من عين شمس

شهـــد الله لم يغب عن جفوني ... شخصه ساعة ولم يخل حسي

وينتقل خيال شوقي بين الإسكندرية ، وعين شمس ،

والجزيرة ، والنيل ، والجيزة ، وبين الأهرام وأبي الهول ، وإذا كنت لا أستسيغ بعض أخيلة شوقي هنا : كتصوير الجزيرة عرساً :

قدها النيل فاستحت فتوارت منه بالجسر بين عرى ولبس

أو تشبيهه الأهرام بميران فرعون .

أو قناطيره ، تأنق فيهـــا ألف جاب وألف صاحب مكس

فإن حديثه عن أبي الهول حديث معجب حقاً ، يبعث في النفس تعظيم الأثر ، ومقيمي الأثر .

ورهين الرمال أفطس إلا أنه صنع جنة غـــير فطس

تتجـــلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق في أساريره إنسي

ثم يقف شوقي مستلهما العظمة من حوادث الأيام ، فيرى دولا تقوم ، وأخرى تسقط ، وملوكا ينهضون بالملك ثم لا تلبث شمسهم أن تتوارى . وهنا ينتقل انتقالا طبيعياً إلى الحديث عن دولة العرب في الأندلس ، فيقف عند آثارهم يستوحيها ، كما وقف البحتري عند آثار الأكاسرة يستلهمها ، وهنا يبدو تأثير البحتري واضحاً في شوقي ، فقد وصف البحتري ما رأى بعينه ، وصور له الخيال ماضي تلك الآثار ، فرسم ما تخيل ، وموازن بين الماضي والحاضر ، وكانت تلك الموازنة مصدر التأسي والاعتبار ، وعلى هذا النسق سار شوقي في قصيدته الأندلسية .

راع البحتري ما رأى من خالد الأثر ، فانطلق يعلن إعجابه ، معترفا بأن تلك الآثار الجليلة لا يمكن أن يوزن بها أطلال العرب ولا آثارهم في صحاريهم المقفرة :

حال ، لم تكن كأطلال سعدى في قفار من اليسابس ملس

ومســـاع لولا المحاباة مني لم تطقها مسماة عنس وعبس

ولقد كان البحتري متفننا ماهراً ، يحاول أن ينقل إليك الأثر الذي أحس به عند ما وقف أمام آثار الفرس ، فيلجأ إلى التشبيه حيناً ، وإلى تصوير ما رآه حيناً آخر ، وإلى الخيال يكمل به الصورة ، حتى تصبح واضحة مؤثرة : فهذا الجرماز — وهو قصر بجانب القصر الأبيض — قد صار مقفراً مهجوراً ، يوحي إلى النفس بالوحشة التي تملؤها عند رؤية القبور ، وإن في هذا القصر من العجائب ما يدل على عظمة منشئيه ، ومن بين ذلك صورة تسجيل معركة حربية دارت بين الروم والفرس عند مدينة أنطاكية ، وقد وقف الشاعر أمام هذه الصورة مذهولا لما فيها من الدقة والإحكام ؛ فهذا أنوشروان يقود الجيش ، مدفوعا إلى القتال بهذا العلم المنصوب ، يحفز الهمم ويبعث العزائم ، وقد ارتدى الملك لباساً أخضر ، وامتطى صهوة حصان يزدهي عجباً ، ويختال تحت راكبه ، وهذا الجيش قد أقبل على المعركة يصطلي نيرانها ، ولا تكاد تسمع إلا صوت السلاح ، فهذا جندي يقبل على عدوه بالرمح ، وذاك يثقي السنان بالترس ، ولقد بلغ من إحكام تلك الصورة أنها تخيل لرائيها أن ما يراه جيش حقيقي لا صورته ، كما ملأ الوهم نفس البحتري ، فأقبل يلمس الصورة بيده ، ليتأكد أنها صورة لا حقيقية ، قال :

فإذا ما رأيت صورة أنطاكية ارتمت بين روم وفرس

والمنايا موائل ، وأنو شروان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس

وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس

من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنان بترس

نصف العين أنهم جد أحياء لهم بينهم إشـــارة خرس

يقتلي فيهم ارتيابي حـــتى تتقراهم يداي بلمـــس

وهذا الإيوان في القصر الأبيض عجيب الصنعة تراه فيخيل لهذه الكآبة التي تغمره أنه مزعج بفراق إلف عزيز عليه ، أو مرهق بتطليق عرس ، فكأنه يشعر بأحداث الزمان ، ويحس بثقله عليه ، ولكنه يحتمل متجلداً ، وبرغم ما أصيب به من استلاب زينته ، وعراه من بسط الديباج ، وستور الدمقس ، لم يزده ذلك إلا عظمة وجلالا ؛ ويجمل الشاعر إعجابه الذي لا حد له في قوله :

ليس يدري ، أصنع إنس لجن سكنوه ، أم صنع جن لإنس

وهنا يسبح الخيال بالبحتري ، فيعود به إلى عهد العظمة والمجد ، الذي ظفر به في القديم هذا القصر الموحش الضخم ، فها هو ذا الملك بين حاشيته ، وقد جلسوا في مراتبهم ، يستقبل الوافدين عليه في إجلال وخشوع ، بينما القصر يموج بمن فيه : قيان يملأنه بالغناء ، ويعمرنه بالسرور ؛ أما اليوم فقد انقضى كل شيء ، وصار موضع عظة وعبرة ، ولا يبخل البحتري على القصر بدموع يذرفها ، برغم أن الدار ليست داره ، ولا الجنس جنس

قومه ، ولكنه يحفظ للفرس هذه اليد التي أسدوها إلى اليمنيين أهله ، يوم أعانوهم على التخلص من غزو الحبش الذين بعثوا إليهم بجيش يقوده أرياط ، ونشم رائحة الشعوبية من بعض أبيات القصيدة كما مضى ، ومن هذا البيت الأخير الذي ختمها به ، وفيه يعلن إعجابه بالأمجاد من جميع الأجناس ، لا فرق بين عربي وعجمي ، قال :

وأراني من بعد أكلف بالأشراف طراً من كل سنخ وأس

ويسير شوقي هذا النهج تقريباً ؛ يصف الأثر في حاضره ، ويمضي به الخيال إلى الماضي ، فيصف ما كان له من أبهة وجلال

زار شوقي قرطبة قراءه ما آل إليه أمر تلك العاصمة القديمة فقد انتقص الدهر أطرافها فعادت قرية حقيرة لا شأن لها ، بعد أن كانت في القديم على عهد العرب ، أعظم بلاد أوربا وأرقاها ، يقول شوقي :

لم يرعني سوى ترى قرطبي ... لست فيه عبرة الدهر نحسي
يا وفي الله ما أصبّح منه ... وسقى صفوة الحيا ما أمسى
قرية لا تعد في الأرض كانت ... تملك الأرض أن تميد وترسي
غشيت ساحل الحيط وغطت ... لجة الروم من شراع وقلس

وإذا كان البحتري قد تخيل قصور المدائن وجلالها ، فقد تخيل شوقي قصور قرطبة وأبهتها ، وقلده في تصويره الناصر تحت الدرفس . ويعود البحتري إلى يقظته فيرى الدار خلاء ، كما عاد شوقي إلى يقظته فوجد الدار ما بها من أنيس ، وخص البحتري الإيوان بجزء من قصيدته يمجده ، وشوقي قد خص المسجد العتيق بجزء من شعره يخلده ، وأرى هذا الجزء أروع أجزاء القصيدة وأقواها ، إذا استثنينا تشبيهه أعمدة المسجد بألفات ابن مقلة ، إذ هو أشبه بوزن الجبل بالنملة . أما الأثر الذي أحس به شوقي عندما وقف أمام هذا المسجد العتيق ، فقد نجح في تصويره تصويراً ينقل هذا الأثر إلى نفوسنا ، إذ يقول :

ورقيق من البيوت عتيق ... جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمد) وتراث ... صار (للروح) ذي الولاء الأمس
بلغ النجم ذروة وتناهى ... بين (شهلان) في الأساس و (قدس)
مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسى
وعوار كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطريها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحها ، كم تزينت لعالم ... واحد الدهر واستعدت لحس
وكأن الرفيف في مسرح العين ... ملاء مدنرات الدمقس
وكأن الآيات في جانبيه ... ينتزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال ... لم يزل بكتسيه أو تحت (قيس)
ومكان الكتاب يغريك ريا ... ورده غائباً فتدنو للمس

صنعة الداخل المبارك في الغرب ، وآل له ميامين شمس ومما لا ريب فيه أن الذي دفع البحتري إلى لمس الصورة ، أقوى مما دفع شوقي إلى لمس مكان الكتاب .

وزار شوقي الحمراء ، ووقف عند آثارها ، ولا سيما مجلس السباع الذي أصبح خلاء مقفراً ، خلده شوقي في شعره ؛ ويقف شوقي حزيناً كئيباً ، يتخيل العرب وهم يغادرون بلاد آبائهم في ذلة وضعف فيقول :

خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هي العرش أمس
رب بان لهادم ، وجوع ... لشت ، ومحسن لخمس
إسرة الناس همة لا تأتى ... لجبان ، ولا تسنى لجبس
وإذا ما أصاب بنيان قوم ... وهي خلق ، فإنه وهي أس

وكما ختم البحتري قصيدته بشكر الفرس على ما كانوا قد أسدوه إلى قومه اليمن ، من سابق اليد ، ختم شوقي قصيدته بشكر الأندلس على ما قدمت إليه من كرم الضيافة له ولا بنيه .

أحمد أحمد بدوي

اطلب كتاب

دفاع عن البلاغة